الفصل الأول

أحوال أيبيريا قُبيل الفتح العربي الإسلامي

1 - الأوضاع السياسية.

2 - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

الفصل

1 أحوال أيبيريا قُبيل الفتح العربي الإسلامي

اولاً- الأوضاع السياسية Political Situation:

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية قبيل الفتح الإسلامي إلى سيطرة وحكم القوط الغربيين[1]. والقوط الغربيون هم من الشعوب الجرمانية الكبرى[2]، حيث كانت مملكتهم هي الأخيرة من سلسلة ممالك البرابرة التي خلفت الإمبراطورية الرومانية، وذلك بعد أن انتهت هذه الأخيرة ككيان سياسي واختفت من مسرح التاريخ. ويؤكد "سانت أزيدور" أن القوط كانوا أمة قديمة تعيش في الألب، وهو يلخص تاريخهم السابق قبل أن يدخلوا شبه جزيرة أيبيريا، فيقول: ((كانوا يسكنون الحافات الثلجية في الغرب، واحتلوا مع شعوب أخرى كل جوانب السهول الجبلية، وقد اضطروا إلى الجلاء من هذه البقاع نتيجة لهجوم أقوام الهون (جماعات آسيوية من عنصر المغول)، فعبروا الدانوب وارتموا في أحضان الرومان، وعندما لم يقدروا على تحمل تحدي هؤلاء، أشهروا أسلحتهم بغضب وغزوا تراقية (Thrace)، ثم اكتسحوا إيطاليا، وحاصروا روما واحتلوها، ثم هاجموا غالة، وبعد أن اتخذوا طريقهم عبر جبال البرت (Pyreness)، وصلوا إلى شبه جزيرة أيبيريا حيث أرسوا فيها قواعد حياتهم وحكمهم))[3].

وقد دام حكم القوط الغربيين لشبه جزيرة أيبيريا مدة ثلاثمئة سنة تقريبًا[4]، ولكن مع طول هذه الفترة إلا أنهم لم يمتزجوا بسكان شبه الجزيرة الأصليين إلا بصورة مصغرة جدًا، وذلك لأن

(1) المراكشي، المعجب، ص450-451؛ ابن الشباط، وصف الأندلس وصقلية (من كتاب صلة السمط وسمة المرط)، ص167؛ ابن خلدون، العبر: 117/4؛ السلاوي الناصري، الاستقصا: 68/1-69.

(2) المراكشي، المعجب، ص451؛ وينظر: العدوي، المسلمون والجرمان، 17-20.

(3) Saint Isidore of Seville، History of the Goths، Vandals and Suvei، translted from the latin by: G Donini and G. B Ford، (Ledion، 1970)، pp. 16-17.

(4) المراكشي، المعجب، ص 451؛ ابن خلدون، العبر: 4/ 117؛ العدوي، المسلمون والجرمان، ص20؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص10.

القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم[1]. وقد كان القانون الذي هو مزيج من القانون الروماني القديم الذي كان قد سنّه الملك "الاريك الثاني" (Alaric II) (484-507م) والقانون القوطي الذي وضعه يوريك (Euric) (466-484م)، هو المنطق والدستور الذي سار عليه القوط الغربيون طوال مدة حكمهم[2].

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء؛ فقد كانت حالة العصيان والمؤامرات المستمرة التي كان يقوم بها النبلاء من مظاهر الضعف الرئيسة لدولة القوط الغربيين[3]، وكانت غاية هؤلاء ترمي إما إلى انتزاع العرش من الملك، أو الانسلاخ من المملكة والحصول على الاستقلال[4].

وخلال السنوات الأخيرة من حكم القوط الغربيين لشبه جزيرة أيبيريا، وبالتحديد بعد انقضاء عهد الملك القوطي "وامبا" (Wamba) (672-680م)، شهدت شبه جزيرة أيبيريا فترة مظلمة مشحونة بالفوضى والاضطراب، استمرت حتى سقوط دول القوط على أيدي العرب الفاتحين، أي مدة ثلاثين عامًا، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي "ليفي بروفنسال": ((ان الثلاثين سنة التي سبقت الفتح الإسلامي، وهي السنوات العجاف (بالنسبة) لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية، تبدو لنا في الواقع غاية في الفوضى والاضطراب على الرغم من قلة ما أمدتنا به المصادر الإخبارية. هذه الفترة القصيرة التي تبدأ من اعتزال الملك "وامبا" العرش سنة (608م) مشحونة كلها بالنزاع والصراع المثير للقلاقل، فمن منافسات دموية بين المرشحين للعرش، ومن ثورات محلية، ومن دسائس يقوم بها النبلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التغلغل في الشؤون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل - كل ذلك كان أكثر من دليل لا يخيب، وإنما يشير بوضوح إلى أن البلاد الأيبيرية كانت تقدم نفسها في طليعة القرن الثامن الميلادي فريسة سهلة لأي غازٍ سواءً أكان هذا الغازي من الشمال أو من الجنوب))[5].

---

(1) المراكشي، ص451؛ مارمول، أفريقيا: 168/1؛ حمودة، تاريخ الأندلس، ص34-35؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص10-11؛ بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص64.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص22؛ حمودة، تاريخ الأندلس، ص36.

(3) مؤنس، فجر الأندلس، ص22؛ حمودة، تاريخ الأندلس، ص38.

(4) للاطلاع على الأحداث التاريخية المتعلقة ببعض حركات التمرد والمؤامرات خلال العهد القوطي، ينظر:
Isidore، History of the Goths، op، cit، p. 22-23،27، 609، 610.

(5) Levi- Provencal، Historic de le Espange Musulman، (Parise، Leiden، 1950). P. 3.

والواقع أن الصورة التي تمثل هذا العصر الأخير صورة مظلمة، ففيه كثرت المشكلات التي تعانيها الدولة من مؤامرات ومصادمات حول العرش، وصراع بين العناصر الخاضعة للقوط، ولم يكن علاج هذه المشكلات متوافرًا لضعف الملوك وتجردهم من مظاهر القوة والسلطان، وضعف الروح الحربية عند القوط، بعد أن تخلوا عن خشونتهم القديمة التي جعلت منهم رجال حرب، الأمر الذي شجع العرب المسلمين على العبور إلى الساحل الأيبيري، والقيام بعملية الفتح وإرساء دعائم الدين الإسلامي هناك[1].

وعلى الرغم من ندرة المعلومات المتوافرة عن طبيعة الأوضاع السياسية لشبه الجزيرة الأيبيرية خلال تلك الفترة، إلاّ أن هناك بعض الشذرات التي تفيد باستعداد القوط وتهيؤهم لمواجهة قوة العرب المسلمين، وقد شجعهم على ذلك أهمية المنطقة، وما تعرضت له في السابق من حملات استطلاعية سبقت عملية الفتح العربي الإسلامي، ولا سيما حملة القائد طارق بن زياد، حيث إنه حاول النزول في الجزيرة الخضراء بعد عبوره إلى الساحل الأيبيري، إلا أنه واجه مقاومة عنيفة من قبل القوط، مما اضطره إلى العدول عن النزول في الجزيرة الخضراء، والتوجه إلى الجبل الذي عرف باسمه فيما بعد بجبل طارق[2].

إذ إن الحملات الاستطلاعية التي سبقت عملية الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبيريا، والتي شنها كل من الكونت يوليان، والقائد طريف بن مالك المعافري، قد نبهت القوط الغربيين على خطر قوة العرب المسلمين، إذ كانت بمثابة إنذار لهم كي يأخذوا حذرهم وحيطتهم لأي هجوم متوقع[3].

وهذا يدل على أن القوط لم يكونوا قد أهملوا هذه المنطقة المهمة، ولم يتركوها دون حراسة أو مراقبة على الرغم من الضعف والانهيار الذي وصلوا إليه في أواخر أيام حكمهم، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا على علم ودراية بتطورات الأحداث التي كانت تجري على الجانب المغربي من

---

(1) Ibid، P، 6.

(2) ابن الكردوس، تاريخ الأندلس، ص46؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 4، 8؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص58-59.

(3) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص16-17؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص5؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 98؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 45؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 561/1؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 5/2؛ مارمول، أفريقيا: 169/1.

المضيق، فقد عهد الملك "لوذريق" (Rodric) إلى القائد "تدمير" (Theodmir) بمسؤولية الدفاع عن هذه المنطقة[1].

ثانيًا- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية Social and Economic Situations:

ليس من السهل تحديد الأصول العرقية للسكان في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ وذلك لأنهم نزحوا من مناطق مختلفة، فهناك نظرية تذكر بأن أصلهم مزيج من الكلت والأيبيريين دخلتها تأثيرات أوروبية وآسيوية وأفريقيا، فقد تمكن الفينيقيون منذ القرن العاشر ق.م من تأسيس مستوطنات ومراكز تجارية على سواحل شبه جزيرة أيبيريا، وخلفهم في ذلك القرطاجينيون، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس ق.م، مراكز استعمارية على سواحل شبه جزيرة أيبيريا، وهكذا وقع الساحل الأيبيري لمضيق جبل طارق تحت تأثيرين: أحدهما أوروبي وهو التأثير اليوناني، والآخر آسيوي أفريقي أو سامي، وهو التأثير القرطاجيني، ثم تحول هذا التأثير إلى لاتيني أوروبي عقب الغزو الروماني عام (205 ق.م)[2].

بيدَّ أنَّ الشيء المعروف عنهم، أن شبه جزيرة أيبيريا قد تعرضت إلى غزوات متعددة كان آخرها سيطرة القوط الغربيين[3]، الذين شكلوا أقلية صغيرة ضمن السكان المحليين وتركزت بيدهم الثروة والممتلكات.

وكان هناك تفاوت وعدم مساواة في البنية الطبقية للمجتمع، لأنه كان يتألف من ثلاث طبقات في مقدمتها طبقة النبلاء وكبار ملاك الأراضي التي استولت على أكثر الأراضي الزراعية الخصبة مع إعفائها من الضرائب، وكانت لهم مناصب الجيش والرياسة في الشؤون الدينية. ثم الطبقة العامة من السكان أو ما تسمى بالطبقة الوسطى والتي تمثل الأغلبية الساحقة من السكان، وكانوا يتألفون من الأحرار البسطاء الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية، وعاشوا في المناطق الحضرية وفي الأرياف، ومن هؤلاء أيضًا العمال في المدن الذين كانوا ينتظمون ضمن

(1) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص16-17؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص5؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص 98؛ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص45.

(2) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص51؛ بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص63-64؛ الغنيمي، كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون، ص49.

(3) للمزيد من المعلومات والتفاصيل، ينظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص52؛ بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص63، 67.

أصناف ونقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينة أخرى، ومن يهرب منهم كان يجبر على العودة إلى مدينته الأصلية، وكانوا محرومين من الانتظام في سلك رجال الدين، أو أن يصبحوا موظفين قضائيين. أما سكان الأرياف، فقد اضطر العديد منهم نظرًا لظروفهم الاقتصادية الصعبة والضرائب المالية القاسية المفروضة عليهم والتي لا تتناسب مع إنتاجهم الهزيل - إلى تسليم أراضيهم إلى كبار النبلاء، ورضوا بالعمل والبقاء فيها مستأجرين لقاء تمتعهم بحماية النبلاء، وقد أصبح هؤلاء بالتدريج مشدودين بالأرض، وارتبطت علاقاتهم بأصحاب الأملاك مدى الحياة، حتى أنهم تحولوا أخيرًا إلى ما يشبه الأقنان، وكان من جملة الالتزامات المفروضة عليهم أن يدفعوا عشر محاصيلهم إيجارًا، فضلاً عن تأدية بعض الخدمات الشخصية الأخرى للنبيل، وضريبة الرؤوس أو الجزية (Capitation)[1].

أما طبقة العبيد فقد كانت تتعرض لأقسى أنواع القهر والاضطهاد؛ إذ كان للسيد على العبد حق الحياة أو الموت، وكان مسخرًا لخدمة ورفاهية الفئات الرفيعة من الأسرة الحاكمة والنبلاء والملاكين، ومعهم كبار رجال الدين الذين تمتعوا بنفوذ وقوة سياسية ودينية كبيرة، منتهزين تحول القوط إلى الكاثوليك في عهد "ريكارد الثاني" (Recared II)[2].

ولهذا، فليس من الغريب أن يحاول العديد منهم الهرب والتخلص من عبوديتهم، فضلاً عن ذلك فإن القوط وخاصة في أواخر عهدهم ابتدؤوا بتجنيد العبيد بالإكراه واستخدامهم في الجيش، مما أدى إلى تذمر هؤلاء وازدياد محاولاتهم في الهروب والنجاة[3].

وأخيرًا، طبقة اليهود الذين شكلوا شريحة كبيرة من حيث العدد ضمن مجتمع شبه الجزيرة الأيبيرية[4]، فقد كانوا منبوذين مضطهدين يعاملهم معاملة قاسية ملوك القوط الغربيين بتأييد

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 223-227؛ طه، الفتح والاستقرار، ص58؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص11.

(2) لمزيد من المعلومات عن أحوال هذه الطبقات، ينظر: ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 206-214؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 62، 64؛ حمودة، تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ص 35-36؛ طه، الفتح والاستقرار، ص 81-82؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 24-25؛ عبدالحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص44-46؛ ينظر:

E. A. Thompson، The Goths in Spin، (Oxford، 1969)، pp: 265- 267.

(3) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص11.

(4) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 22، 25؛ ابن بلقين، كتاب التبيان، ص 131؛ ابن سعيد المغربي، المغرب في =

ودعم من رجال الكنيسة، إذ صدّروا كثيرًا من التشريعات ضد اليهود منذ أيام الملك "الاريك الثاني" (Alaric II)[1].

وفي عهد الملك "سسبت" جُرد اليهود من العبيد والمستأجرين، ولهذا أصبح من الصعب عليهم أن يزرعوا أراضيهم، أو أن يمتلكوا المزارع الكبيرة، وفي عهد الملك "ايروج" (Erwig) (680-687م) أبعد اليهود عن كل وظائف الدولة، وعن تولي المزارع الكبيرة، وحُرّم عليهم وعلى عبيدهم أن يعملوا في حقولهم أيام الآحاد والعطل الدينية المسيحية، ولكن ذروة التضييق على النشاط الاقتصادي لليهود وصلت غايتها في عهد الملك "اخيكيا" (Egica) (687-702م)؛ فقد كانت تشريعاته تهدف إلى شل القدرة الاقتصادية لليهود، والحد من قابليتهم في الحصول على المعيشة، لذلك أجبروا على أن يبيعوا إلى خزينة الدولة كل ممتلكاتهم، فضلاً عن ذلك فقد منعوا أيضًا من مزاولة التجارة على مختلف أشكالها، أو أن يتاجروا وراء البحار[2].

وفي ذلك يقول المستشرق الهولندي دوزي: ((وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة أيما عصف باليهود، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم واضطهاد، وكانوا يتطلعون إلى الخلاص ويرون في أولئك الفاتحين نصرًا لهم))[3].

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى الأسباب التي تقف وراء هذا الاضطهاد والتضييق على اليهود، أو لماذا مُنع اليهود من ممارسة أي نوع من أنواع التجارة، ومن هذه الأسباب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا، أو بسبب تعاليهم على أبناء الديانات الأخرى وانغلاقهم على أنفسهم واستغلالهم لغيرهم من الناحية الاقتصادية، وربما كان لتآمرهم السياسي أيضًا أثر كبير على تشريع بعض القوانين المعادية لهم، وقد استطاع اليهود التخلص من هذه القوانين بسبب دفعهم الرشوة

= حلى المغرب: 105/1؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 12/2؛ وينظر:

Nevill Barbour، the land of the Tow Shores، Islamic Culture، Vol، 5، 1937، p. 236.

(1) طه، الفتح والاستقرار، ص 86-87؛ حمودة، تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ص36؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص65؛ ينظر:

Thompson، op، cit، pp. 53، 163، 166، 316.

(2) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص51؛ طه، الفتح والاستقرار، ص87؛ الغنيمي، كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون، ص55؛ ينظر:

Thompson، op، cit، pp، 165-166.

(3) رينهارت دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا: 15/1.

إلى النبلاء ورجال الدين، كما قام بعضهم بالاشتراك مع بعض الحركات المناوئة للسلطة[1]. وقد تعرض اليهود في عهد الملك "اخيكا" إلى الاتهام والتآمر مع يهود من خارج البلاد للعمل ضد المسيحيين في إسبانيا، وقد يكون هذا الاتهام صحيحًا، ولكن لا تتوافر أدلة عليه سوى خطبة الملك "أخيكا" التي ألقاها أمام مجلس طليطلة السابع عشر (9 تشرين الثاني سنة (694م) عندما أشار إلى هذه المؤامرة لأول مرة[2].

وهكذا، كانت إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي تشكو الفشل السياسي، والتأخر الاقتصادي، والتفكك الاجتماعي، والظلم الطبقي (لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية، بل كان بإمكانها أن تصد جيشًا مهاجمًا وتحاربه وتقف في وجهه)[3]. ومهما يكن من أمر، فإن هذه السلطة- ولا غيرها- لم تكن قادرة على الوقوف أمام أُناس أخلصوا لعقيدتهم وافتدوها بأنفسهم، ولم يبخلوا بشيء من أجلها. هؤلاء هم الجيوش الإسلامية الذين قدموا لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية.

(1) السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص15؛ الفتح والاستقرار، ص 87-88؛ وينظر: علي أحمد، اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، ص 163-164.

(2) لمزيد من التفاصيل عن أحوال اليهود، ينظر: الخالدي، اليهود في الأندلس (دراسة حضارية)، أطروحة دكتوراه، ص70 وما بعدها؛

Thompson، op. cit، pp، 53، 163، 166، 316؛ Isidore، op. cit، p. 28; Solman، Katz، The Jews in the visigo thic and Frankish Kingdoms of Spin and Gaul، (New Yurok، 1970)، pp، 11، 27، 124.

(3) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص30-31؛ وينظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص68؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص71.